إطلالة

لماذا لا نفهم ما يُكتب؟

قراءات في ضوء غزّة

في ضوء الأحداث التي ترجّ الحياة العربية، وفي ظلّ الإبادة الجماعية التي تُنذر بإبادات مُستقبليّة، الجميع يقول غزّة ويسميها، ولكن لا أحد يجرؤ ان يفعل شيئاً كي يوقف المجزرة الإسرائيلية الحاصلة. فهل تكفي الشعارات والأسماء لدعم قضية العرب الأهم؟

جعفر العلوني

مهما كان المجتمعُ خاضِعاً، بطريقةٍ أو بأخرى، ومهما حاولت الأنظمة العربية المستبدّة مُمارسة القمع والترويض والرقابة، فإنّ القراءة تبقى مكاناً للثورة والعصيان. غير أنّ الآلاف في الحياة الثقافية العربية الراهنة، وهو أمر يدعو إلى التحليل والدراسة، أن ثمّة أصواتاً «ناقدة» و«فكرية» و«أدبية» وعددُها ليس قليلاً، تدعم هذه الأنظمة، وتضع للقراءة حدُوداً لا يجوز اختراقها، محاولةً في ذلك، عن وعي أو غير وعي، مساعدة تلك الأنظمة على إخماد شرر أيّة ثورة تلتهب في عقل القارئ، في جسده، وفي مخيّلته وفكره.

يطرح الفيلسوف الإسباني خوسيه أورتيغا إي غاسيت (1883 - 1955) في كتابه «تجريد الفنّ من النزعة الإنسانية» سؤالاً مفادُه: كيف يُقرأ العمل الإبداعي؟ يرتكز إي غاسيت في معرض إجابته عن السؤال على أساس التأثيرات الاجتماعية التي يُحدثها الفنّ، مميّزاً بين نوعين من القُرّاء: أولئك الذين يفهمون العمل الفنّي وبالتالي يحبّونه؛ وأولئك الذين لا يفهمون العمل الفني وبالتالي يكرهونه. ولكي يشرح المُنظّر الإسباني الأمر جيّداً يستحضر، كمثال، مسرحية «هرنّاني» لـ فيكتور هوغو، التي لم تُعجب الكلاسيكيين القدماء عندما قرأوها، لأنّهم «متعلّقون ومؤمنون ومعتادون على إحساس مشترك وإخباري وجمعي ومعروف»، ويوضّح ذلك قائلاً: «إنّنا عندما نكره عملاً أدبياً ورغم ذلك نفهمه، نشعر بالعلوّ عليه، ولا نَجد ما يثير غضبنا. ولكن عندما يولّد العمل الأدبي فينا كرهاً ناتجاً عن عدم فهمنا له، فإنّنا نشعر في أعماقنا المُعتمة بشيء من الخزي، وبعلوّ هذا العمل على ذاتنا، التي نحاول من خلال تأكيدها الساخط تعزيةَ أنفسنا أمامه».

كيف يُمكن أن نُؤكّد هذه الذات أمام عمل إبداعي لا نفهمه؟ يجيب الفيلسوف الإسباني عن السؤال بأنّ «القارئ» الذي لا يستطيع أن يخرج من المُشترك، والجماعي، والإخباري، والعام، لن يفهم هذا العمل مهما فعل، لأنّه قارئ يعيش في سياق المألوف وصفحاته. قراءتُه، ضمن هذا المعنى، لن تستطيع أن تستخرج من النص، على الصعيد المعرفي أو العاطفي، أي شيء جديد. إنّها، بتعبير آخر، قراءة مُستنفَدة، لأنها أسيرة الواقع المباشر الظاهر والشائع. إنّها، وكما يصفها، قراءة سطحية، أسيرة الأسماء والأشكال.

ما يقوله الفيلسوف الإسباني، كما يبدو لي، ينطبق على حال القراءة السائدة في العالم العربي، والتي، حتى الآن، يبدو أنّها لم تخرج من مدار ثقافة المؤسّسات السياسية والدينية والثقافية العربية السلطوية السائدة، التي مارست الرقابة ورسّخت ثقافتها الواحدة ونشرتها وروّجتها وخلقت بذلك جمهوراً لا يُعجب إلّا بنموذج هذه الثقافة وبالنصوص التي تُكتب في فلكها. وهكذا عندما لا يجد «القارئ» في النصّ الذي يقرأه أفكار هذه المؤسّسة، أو في أحسن الأحوال، أفكاره الخاصة، لن يُعجبه النص، وسيرفضه. وإذا كان نصاً شعرياً فسيقول إنه ليس شعراً، وكذلك الأمر بالنسبة للأجناس الأخرى. لأنه، ببساطة، لا يريد أن يقرأ في النصّ إلّا الأفكار التي يعرفها، لا يريد أن يقرأ إلا الأجوبة التي عوّدته المؤسّسة عليها. وبطبيعة الحال، لا يجوز التعميم، فهناك قرّاء حقيقيون في العالم العربي يحقون أن يجدوا في النصوص أفكاراً تناهض أفكارهم وذائقتهم وتثير فيهم التساؤلات الكبرى. تتأسس العلاقة الأولى للقارئ مع النص في كيفية قراءته. وهذا يعني أنّ للنص مستويات متعدّدة، بتعدد قراءاته. لو سألنا اليوم ما مستوى القراءة السائدة للنصوص الإبداعية في الثقافة العربية؟ فإن الجواب سيكون: القراءة التي تُغلّب السطح لا العمق، أي القراءة بمنظورها الأيديولوجي والسياسي والديني، القراءة التي تغلّب الأسماء، الكلمات، لا ما وراءها. ولذلك لن نستغرب أن نرى بعضهم، تمثيلاً لا حصراً، يطالبون شاعراً بوضع كلمة أو اسم كي تقرّا قصيدته بوصفها قصيدةً عن غزّة؛ لا يُزال بعض «القرّاء» العرب مستمعين، ينصتون فحسب. ربّما لهذا يطلبون من الشاعر أو الكاتب أن يكون واضحاً، أن يسمّي، ويحدد، ويعرّف. وهم بذلك يساهمون في تحويل الشعراء إلى مطربين ومنشدين أو مغنين. الطّامة الكبرى هي أنّ ثقافة القراءة السائدة هذه قد انتشرت وأسست لـ«نقد» يقيّم الأعمال الإبداعية وفقاً لهذه المعايير.

صبي فلسطيني يقف أمام جدارية في منزل دمره الاحتلال، 23 حزيران/ يونيو، 2023 (Getty)

لم تخرج القراءة من مدار ثقافة المؤسّسات السلطوية العربية

لن تُفرض قراءة واحدة وموحدة على نصّ يعني، من بين أشياء أخرى، نهاية العقل والمعرفة والفكر والمخيّلة، ويعني أيضاً غربلة هذا النص في تصوّر أصحاب هؤلاء القراءة، أي تصوّرهم الخاص للواقع وللغة.

قد يجهل بعض «القرّاء» أنّ اللغة هي الممارسة الوجودية التي يتأنس بها الإنسان ويتحقّق قبل أن تكون أداة تواصل. إنّها الشكل الذي يفصح عن وجود الكائن الإنساني ويُظهره. ويكفي أن نعرف أنّ الإنسان تواصل قبل اللغة، قبل تسمية الأشياء. ضمن هذا المعنى، ليست اللغة تسمية، ليست وصفاً، وهي ليست كي يقول الإنسان ما هو واقع وحسب، بل إنها قبل كل ذلك كي تقول الوجود، تأسيساً وصيرورةً وكينونة. وهي ليست صوراً للأشياء أو تمثيلاً أو محاكاةً لها. إنها رموز ودلالات واصطلاحات، وهي، إذاً، ليست تسمية، بقدر ما هي، حركة فعل وفعالية، وما بينهما من أفق السؤال والتغيّر. يبرع في الحياة العربية فنٌ يكاد أن يكون خبزنا اليومي. إنّه فنّ الاستحواذ. الاستحواذ على كلّ شيء: السلطة، الثقافة، الدين، اللغة، الكتابة، القراءة، إلخ... وقد برعت المؤسسات السلطوية في العالم العربي في ترسيخ هذا الاستحواذ، بحيث صار المواطن نفسه بارعاً في ممارسة هذا الاستحواذ على كل شيء.

هل الاسم معيارٌ لتحديد القضية أو الموضوع؟ ظنّي أنّ الوقوف عند الأسماء هو ما أدّى إلى هذا التخاذل والتراجع العربي عن قضية فلسطين، لأنّها قراءة لا تريد من القضية، قضية العرب، إلّا الاسم فحسب، فلسطين، أما الفعل فهو مؤجّل وغائب، فالمهمّ هو الاسم. الشعار! هذا ما عملت الأنظمة العربية الراهنة، بمؤسساتها السياسية والثقافية، وبمثقفيها ونقادها وكتّابها، على نشره وترويجه في المجتمعات العربية. وربّما في هذا ما يوضّح لنا هذا الموقف العربي البائس والمستسلم وقائياً. وحيث الجميع يسمّي غزّة، ولكن لا أحد يجرؤ أن يفعل شيئاً لوقف الإبادة الحاصلة. ثمّة نوعان من القرّاء. قارئٌ يُمسك بذيل النصّ ويركض وراءه، فهو أقلّ منه. وقارئ يحيط بالنص لكي يأسره في لحظته، فهو أكبر منه. الآية الكريمة التي تقول: «اقرأ باسم ربّك» لا تعني اقرأ ما كُتب فحسب، وإنما تعني أيضاً اقرأ وتمعّن وافهم ما لم يُكتب أيضاً. لكن في ضوء الأحداث الراهنة التي تزجّ الحياة العربية، وفي ظلّ الإبادة الجماعية في غزّة التي تُنذر بإبادات مُستقبلية، يجدر بنا أن نسأل: متى تُجيء اللحظة التي نعيد فيها النظر في مفهوم القراءة السائدة في العالم العربي، وأن نتساءل أيضاً: لماذا لا نفهم ما نقوله، يا أبا تمّام!

(شاعر ومترجم سوري مقيم في إسبانيا)

ما لم يُكتب أيضاً

الآية الكريمة التي تقول «اقرأ باسم ربّك» لا تعني اقرأ ما كُتب فحسب، وإنما تعني أيضاً اقرأ وتمعّن وافهم ما لم يُكتب أيضاً. ثمّة دائما فراغ ما بين الاسم والمسمّى، بين الكلمة والشيء. القراءة الحقيقية هي التي تحاول ان تملأ هذا الفراغ. أزمة القراءة هذه هي التي توضح الموقف العربي البائس والمستسلم وقائياً، حيث الجميع يريد ان يقرأ غزّة ويسميها ظاهرياً، ولكن لا احد يجرؤ ان يفعل شيئاً لوقف الإبادة الحاصلة.

مع غزّة

سناء درغموني

ما تبقى من عزّة وكرامة وإنسانية

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء

بولونيا (إيطاليا) ـ العربي الجديد

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوان إبادةٍ على غزّة؟

تؤرّقني أمور كثيرة، لكني أظنّ أنّ الهاجس الأكبر الذي يسكنني هذه الأيام هو ترقّب نهاية العدوان وتوقّف الإبادة في أسرع وقت. أشعر بالذنب عند ممارسة أبسط المهام والأنشطة اليومية بكلّ حرّية ويؤلمني شعوري بالقهر وبالعجز تجاه ما يحصل من قتل مُمنهج، ومن تدمير كامل على مرأى ومسمع الجميع. أخشى على العالم أن يعتاد المشهد والخبر، وأن يتعايش مع ازدواجية المعايير وزيف القيم الإنسانية، تلك التي كنّا ندافع عنها بإيمان وقناعة. الإبادة عرّت المواقف وكشفتها بوضوح، كما أنها أسقطت كلّ الأقنعة، لكنّ الثمن باهظ جدّاً، فهل العالم بحاجة إلى كلّ هذه الدماء والأرواح البريئة لكي يصحو؟ وكيف سينظر الإنسان إلى نفسه أولاً ثم إلى أخيه ثانياً بعد نهاية المأساة؟ كيف سيجمع العالم أشلاءه بعد المحرقة؟ أسئلة وهواجس كثيرة.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

بعد بداية العدوان على غزّة، تغيّرت مسارات حياتي الطبيعية وأصبحت أنشطتي اليومية مرتبطة بما يحصل. لا يزال التأثير النفسي قوياً والألم حاضراً بشدّة، لكنّي أحاول أن أقاوم الشعور بالعجز بتنظيم فعاليات ثقافية والمشاركة في لقاءات ومظاهرات ومعارض فنّية تضامناً مع غزّة وأهلها، أركّز أكثر على ترجمة أعمال شعرية لكتّاب من غزّة يُقاومون ويكتبون تحت القصف وأسعى إلى إيصال أصواتهم قدر المستطاع. أتكلّم عن فلسطين وعن عدالة القضية كلّ يوم في مُحاضراتي ومع طلّابي وفي الشارع وفي كلّ مجالات حياتي، الصغيرة قبل الكبيرة.

■ إلى أي درجة تشعرين بأن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟ للعمل الإبداعي دور على المديين القريب والبعيد. على المدى القريب يُساهم النضال الفكري في فضح الجرائم وتوثيقها، أما على المدى البعيد فالأثر يكون أعمق في مقاومة الإبادة، الفنّ بصفة عامّة حارس الذاكرة، والنظام الصهيوني يخاف من ثقافة الآخر، من فنّه، من تاريخه ومن ذاكرته، لذلك يحاول محو الذاكرة الفلسطينية بأبشع الطرق والأساليب. أؤمن بأن الجبهة الثقافية مهمّة لأنها تعمل على نشر الوعي وأعرف أنّ النضال الفكري سيثمر ولو بعد حين. لغة الإبداع هي أكثر اللغات وصولاً وتأثيراً على المتلقّي، لأن رمزيتها قادرة على تلخيص المعاناة بشكل مباشر وبسيط.

■ لو قيّض لك البدء من جديد، هل ستختارين المجال الإبداعي أم مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

أظنّ أنّ لكلّ مجال دوره ولكلّ جبهة فعاليتها وأهمّيتها. العمل السياسي مهمّ ومطلوب أكثر من أيّ وقت مضى، العمل الإنساني نبيل، خصوصاً في ظروف كهذه تكاد تنعدم فيها مقوّمات العيش البسيطة، العمل النضالي الجادّ يعمل على تحقيق تغييرات اجتماعية وسياسية، وإن كانت بطيئة، من خلال المقاطعات الاقتصادية والإضرابات والحملات العاتمة. لو قيّض لي البدء من جديد أظنّ أنني سأختار المجال الإبداعي وبالخصوص الأدب، لأنّ الكتابة تبقى من أقوى أشكال المقاومة، خاصة عندما تتجاوز وظيفتُها البُعد الجمالي. للكلمة سحر خاص وأثر عميق في الدعوة إلى التغيير والحفاظ على الذاكرة الجماعية واستعادة الحقّ والهوية.

■ ما هو التغيير الذي تنتظرينه أو تريدينه في العالم؟

ما أريده للعالم هو أن يسترجع إنسانيته.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودين لقاءها، وماذا ستقولين لها؟

هناك طبعاً شخصيات إبداعية مقاومة عديدة من الماضي أودّ لقاءها. للجواب عن هذا السؤال أختار شخصية رسّام الكاريكاتير ناجي العلي وسأقول له إنّ حنظلة مراثنا وضميرنا الحيّ. حنظلة هو الطفل الخالد في عالم يُمارس أبشع أنواع التشريد والقتل والإبادة ضدّ أطفال فلسطين.

■ كلمة تقولينها للناس في غزّة؟

يعجز الكلام، لا شيء يُقال للناس في غزّة. غزّة هي ما تبقى من عزّة وكرامة وإنسانية، لذا فلنقف في حضرتها صامتين ولنتعلّم من صمود شعبها.

■ كلمة تقولينها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

لا أحبّ الشعارات، لكنّي أمل أن أرى موقفاً إنسانياً موحّداً يتجاوز الوطنيات وأن يكون هناك دور أقوى للمثقّفين العرب في هذه الفترة التاريخية التي لم نشهد مثلها من قبل، نحتاج إلى مثقّفين ملتزمين أخلاقياً يحملون همومنا ويحترقون من أجل إضاءة طُرقنا المُعتمة، مثقّفين أحرار وعناصر لها خطاب مؤثّر في الوعي الجماعي. يعيش المثقّف العربي اليوم أزمة كبيرة وكأنه صار معزولاً عن العالم وعن المجتمع، لذلك فقد حان الوقت لتتوحّد كل الصفوف، لأن العالم العربي في حاجة ملحّة إلى مثقّفيه.

■ حين سئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان: ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقولين لدارين ولأطفال فلسطين؟

إلى الجميلة دارين وإلى أطفال فلسطين أقول ما كتبه محمود درويش «سيجيء يوم آخر، يوم نسائي، شفيف الاستعارة، كامل التكوين»، وأتمنى أن أكون معهم حين يجيء ذلك اليوم.

سناء درغموني

بطاقة

مُترجمة من العربية إلى الإيطالية وبالعكس، من مواليد مدينة بن أحمد في المغرب عام 1980. حاصلة على دكتوراه في الأدب المقارن من «جامعة بولونيا» عام 2011، وتعمل فيها حالياً أستاذة. صدرت لها كتبٌ في تدريس اللغة العربية، كما ترجمت مجموعات عدّة لشعراء عرب وإيطاليّين؛ من بينها: «سيرة مرضية» (2019) لأشرف فيّاض، و«باب السعادة» (2020) لـ فاليريا دي فيليتشي، و«فكرة النهر» (2023) لحسن نجمي، و«قصائد العمى» (2024) للمياء المقدّم.

معرض

تولوسا وكابالييرو فوتوغرافيا اللاجئين الفلسطينيّين في لبنان

من النكبة إلى إبادة غزّة

يقام المعرض ضمن استذكار «متحف ديري الحرّ» في أيرلندا الشمالية يوم النكبة، حيث تُخصص فعالياته دعماً لحرية فلسطين وإنهاء نظام الفصل العنصري

لندن ـ العربي الجديد

في كتابه «فلسطين.. تاريخ أساسي» (2014)، يستند خوركي رامون تولوسا في تحليله إلى عملية استعمارية نشطة بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر واستمرت حتّى يومنا هذا، أفضت إلى إصدار قرار تقسيم فلسطين، ثم التطهير العرقي لسكانها عام 1948، وإنشاء دولة «إسرائيل»، فقيام الحروب بينها وبين الدولة العربية وصولاً إلى مفوضات السلام.

ويقدّم أستاذ التاريخ المعاصر في «جامعة فالنسيا» الإسبانية، في عدد من مؤلفاته، رؤية مغايرة للصراع مع الاحتلال تتطلّب أدوات جديدة وأطر ضغط جديدة، ومنها مشروعه المشترك مع مواطنه المصوّر الفوتوغرافي جيرمان كابالييرو في معرض «الزمن لا يزال ثابتاً: الحياة في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان». المعرض افتتح أمس الأربعاء في «متحف ديري الحرّ» بمدينة ديري بأيرلندا الشمالية، في ذكرى يوم النكبة، حيث تُخصّص إدارة المتحف فعالياتها دعماً لحرية فلسطين وإنهاء نظام الفصل العنصري الإسرائيلي. ويتواصل المعرض حتى الخامس عشر من الشهر المقبل.

بدأ كابالييرو رحلته عام 2019، بالذهاب إلى مخيمات شاتيلا وبرج البراجنة ومار إلياس وضبية وويفل، والبداوي والمية مية والبرج الشمالي، ليستكمل العمل في سنة 2020 ثمّ 2023، حيث التقط حوالي مائة صورة تعكس المشكلات التي يواجهها اللاجئون، في ما يخصّ مياه الشرب، والصحة، والسكن، وأوضاع الأطفال وكبار السن، بالإضافة إلى جائحة كورونا والأزمة الاقتصادية الناجمة عنها.

وفي تقديم المعرض، لا يغفل المنظّمون ربط العدوان الإسرائيلي على غزّة منذ السابع من تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، وأنّ الإبادة الجماعية المستمرة هي امتداد لما حدث عام 1948، حين تمّ تدمير أكثر من خمسمئة بلدة وقرية فلسطينية، وتهجير أكثر من سبعمئة وخمسين ألفاً كانوا يعيشون فيها، في تأكيد أنّ العنف لم يبدأ في الخريف الماضي، بل هو مستمرٌ في عامه السادس والسبعين.

يوثّق كابالييرو مشاهد متنوّعة من الحياة اليومية التي يعيشها اللاجئون الفلسطينيون في لبنان، والذين يتقاسمون اليوم السكن والمكان مع لاجئين سوريين منذ عام 2011، كما توضح بعض الصور المأخوذة من الشوارع والأسواق والمدارس وأماكن اللعب والساحات والمنازل أيضاً.

في أحد الأعمال المعروضة، يدمج المصوّر الإسباني اثنتين وثلاثين صورة للاجئين من مختلف الأعمار في صورة واحدة، مع تدوين لأسمائهم جميعاً، بينما يعرض في صور أخرى شعارات وعبارات ورموزاً يكتبها اللاجئون على السبورة في غرف الصفّ بين الحصص الدراسية، وعلى جدران المخيم، وتخترل سيرة حياتهم وحلم العودة إلى فلسطين. ليست هذه التجربة الأولى لكابالييرو في تقديم واقع الفلسطينيين، حيث سبق أن أقام معرضاً بعنوان «الخليل: الحياة والمقاومة» في «متحف تاريخ فالنسيا» عام 2016، وكذلك تولوسا الذي أصدر مؤلّفات مثل «فلسطين في النظريات الإبستمولوجية الجنوبية» (2022)، و«تاريخ معاصر لفلسطين- إسرائيل» (2020)، بالإضافة إلى مقالات عدّة حول إنهاء الاستعمار في فلسطين.

توثيق مشاهد من الحياة اليومية للاجئين الفلسطينيّين في لبنان

من المعرض

فعاليات

عند السابعة والنصف من مساء اليوم، يُقدّم الفنّان الفلسطيني **حسام أبو عيشة** عرضاً مسرحياً بعنوان **عرْق النعنع** في «دار الفنون» بعمّان. يستحضر أبو عيشة في العرض تجربة اعتقاله في مطلع الثمانينيات والرسائل التي تبادلها مع زوجته، ويُضيء على حياة الأسرى الفلسطينيّين في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

ضمن فعاليات «أسبوع العودة» التي تُنظّمها حتى الثامن عشر من الشهر الجاري، تُقيم «جمعية الثقافة العربية» في حيفا، عند السابعة من مساء الخميس، حوارية الكترونية تحت عنوان **سينما النكبة: النكبة في السينما الفلسطينية**. يتحدّث في الجلسة كلّ من الصحافية والناقدة سماح بصول، والمختصّة في الارشيف الفلسطيني **رولا شهوان**، والكاتب والأكاديمي **عبد الله البياري**.

تحت عنوان **لزهر حكّار.. حياة**، يتواصل في «متحف الفنون الجميلة» بالجزائر العاصمة، حتى نهاية حزيران/ يونيو المُقبل، معرضٌ استعادي لأعمال التشكيلي الجزائري الراحل (1945 - 2013). تحضر في اللوحات ثيمات مختلفة؛ مثل التراث الجزائري، وانضال الجزائريّين ضدّ الاحتلال الفرنسي، وكفاح افريقيا ضدّ العبودية.

ضد النكبة 1948 - 2024، عنوان التظاهرة التي يدعو إليها «مكتب مقاطعة إسرائيل» في مدينة المرية الأندلسية، عند الثامنة من مساء يوم غد الجمعة. تتجمع التظاهرة في ساحة الشهداء في المدينة، وتطالب بوقف العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع «إسرائيل»، وترفع شعار **فلسطين حرّة من النهر إلى البحر**.